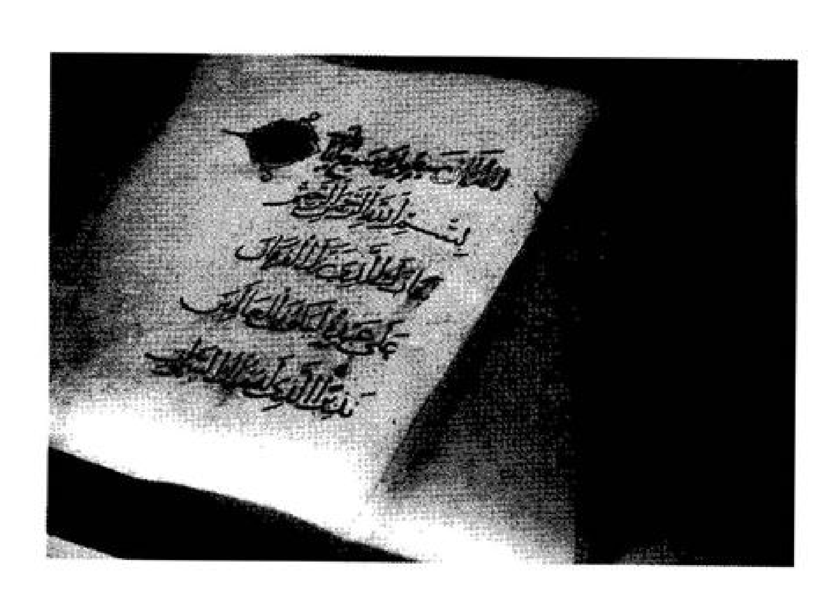


مدخل إلي تاريخ الدراسات العربية والإسلامية في روسيا

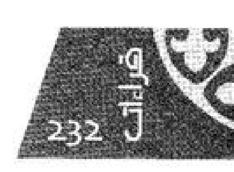
الاستشراق الروسي



حين صدر هذا الكتاب (1) أدركت أنه جاء في موعده وأنه سيسد ثغرة هامة في المكتبة العربية، ورأيت أنه ينبغي تقديمه للقارئ العربي وتعريفه به..لكن مشاغل الحياة صرفتني عن ذلك، وتعللت بأنه لابد أن في الباحثين من يقوم بالمهمة ...وقد مرت الآن سنتان ولم أجد له أي مراجعة فيما اطلعت عليه من الدوريات العربية، فتيقنت أن الفرض علي أصبح عينيا وأنه لابد لي من تدارك الأمر والتعريف -ربما- بالدراسة العربية الوحيدة في موضوعها.

وكنت أرى ولا أزال أننا بحاجة شديدة إلى الانفتاح على العوالم الأخرى غير الغرب، بشقيه الأوربي والأمريكي ..فنولي اهتماما خاصا لدول الصين واليابان و روسيا وإفريقيا السوداء والهند والبرازيل ..ذلك أن مركز الثقل السياسي والاقتصادي في العالم قد بدأ منذ زمان يتحول شيئا فشيئا إلى آسيا





بالخصوص (2).. وعلى الفكر العربي الإسلامي أن يواكب هذا التحول وأن يتعرف بعمق على مجتمعاته الرائدة .. وهذا يقتضي أول ما يقتضي : إتقان لغات هذه الحضارات .ثم من شروط تحقيق التواصل مع هذه الشعوب أن ندرك كيف تنظر إلينا وإلى حضارتنا ، وما هي صورتنا عندهم.

في هذا الإطار أرى أن لكتاب الأستاذ العطاوي أهمية خاصة، وهو في الأصل أطروحة أكاديمية تقدم بها الكاتب لنيل دكتوراه الدولة من جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء .ولا حاجة للتذكير بأن المؤلف يتقن اللغة الروسية وبأن أكثر مصادره - في الأطروحة - روسية . يقع هذا الكتاب في 425 صفحة ، بدأه المؤلف بمقدمة أشار فيها إلى ظاهرة عدم اهتمام الباحثين بالاستشراق في روسيا و أوربا الشرقية ، ولذلك فالدراسات العربية في الموضوع نادرة جدا.

وينقسم الكتاب إلى فصول أربعة ، هذه أهم محتوياتها ..أعرضها باختصار :

الفصل الأول : الروسيون القدامى والإسلام، وبداية الاستشراق في روسيا

يتكون هذا الفصل من ثلاثة عناصر أساسية هي عبارة عن تاريخ عام لاتصال الروس بالحضارة الإسلامية :

1-الإسلام والروسيون القدامى : مما لا يعرفه كثير من الناس أن روسيا عرفت الإسلام قبل المسيحية ، وذلك حين فتحت بلاد الداغستان في القوقاز في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ..ثم استمر الإسلام ينتشر شيئا فشيئا بهذه المناطق بفضل جهود الدعاة والتجار والمتصوفة. وترجع الصلات التجارية بين العرب والروس إلى العهد العباسي الأول. و أول وصف عربي لشعوب الروس والخزر والبلغار كتبه أحمد بن فضلان في رحلته سنة309 هـ.

ومازال الإسلام منذ ذلك الحين إلى اليوم عنصرا مؤثرا في السياستين الداخلية والخارجية لروسيا .

ثم بين لنا الكاتب من هم الروسيون القدامى . فهؤلاء هم أهم فروع مجموعة بشرية كبيرة هي: السلافيون، واللذين تنقسم لغاتهم إلى ثلاثة فصائل كبيرة . وقد دفعت الظروف الحياتية والمناخية الصعبة هذا الشعب إلى التوسع فكان مقر دولته كييف . ثم ما لبث الأمراء الروس أن اختاروا الديانة المسيحية في شكلها الأورثذكسي البيزنطي ، لأسباب سياسية عملية.. وهو الاختيار الذي كانت له عواقب كثيرة ،أهمها انعزال روسيا عن سائر أوربا الكاثوليكية من جهة وعن آسيا المسلمة من جهة أخرى .

لكن تطورا خطيرا حدث وغير كل شئ في المنطقة ، وذلك هو الغزو المغولي- التتري الذي هزم الروس سنة 1233ميلادية ، واحتل أراضيهم لما يزيد على قرنين وحين غدا الإسلام الدين الرسمي للدولة المغولية التترية عام.1312.ازداد حقد الروس على الغزاة واقتنعوا بأن بلادهم قلعة مسيحية ضد الإسلام . ولهذا اشتد الكفاح الروسي ضد التتر، واستطاعت الدولة الروسية احتلال أهم مدنهم : قازان، فأبادت جل سكانها سنة 1552, وقضت على دولة سيبيريا المسلمة عام 1598.



بهذا بين الكاتب الأصول التاريخية للتمدد الروسي وكيف أن استراتيجية هذا التوسع تشكلت منذ هذه الفترة ، وبعض عناصرها استمر إلى القرن

● الاستشراق الروسي - 2002 ط 1 ، بالمركز الثقافي العربي، 425 صفحة، قطع متوسط.

العشرين ومنها :

1-التوسع على حساب أراضي المسلمين .

2- ترويس الأمم المغولية و تنصيرها والا إبادتها.

لكن هذه الاستراتيجية اصطدمت بأكبر عقبة، وهي شعوب القوقاز التي تزعمتها الطريقة النقشبندية طيلة القرن التاسع عشر. وكانت أعنف مقاومة هي تلك التي قادها الإمام شامل بداغستان ، والذي وضع إصلاحات مدنية و مالية و عسكرية ، فالتفت حوله بلاد القوقاز، واستطاع أن يحقق انتصارات كبيرة على الروس ،قبل أن يستسلم سنة 1859. ولذلك عرفت العلاقات الروسية - التترية توترا شبه دائم .إذ لم يكتف الروس بالسيطرة السياسية ، بل سلكوا سبيل الاستيطان وتذويب من بقي من التتر بين المحتلين. وتأرجحت الإمبراطورية طويلا بين محاولات التنصير و طمس الهوية ،و بين الاعتراف بالحقوق الدينية و الثقافية للتتر ، وذلك بحسب التصور المهيمن في كل مرحلة بين رجالات الدولة.

وقد نشأت بين التتر في نهاية القرن التاسع عشر حركة إسلامية تجديدية واسعة النطاق، من أبرز روادها الشيخ شهاب الدين المرجاني. ويرى المؤلف أن هذه الحركات التي حملت لواء التجديد والاجتهاد سبقت نظيراتها في العالم العربي بعشرات السنين.

2- المؤثرات الحضارية العربية - الإسلامية الأولى على حياة الروس : لكن رغم الصراعات التاريخية لشعوب المنطقة فقد سادت بينها أيضا فترات سلام وتواصل. وأهم الأساليب التي تعرف الروس عبرها على الحضارة الإسلامية هي: العلاقات التجارية، والرحلات، خاصة زيارة الأماكن المقدسة المسيحية بفلسطين، والبعثات الدبلوماسية، والاستشراق العلمي، و الترجمات، والصحافة..ويوجد مصدر رئيس اعتمده الروس في التعرف على الإسلام، وهو ما كتبه اليونان والبيزنطيون. أو ترجموه. في الموضوع مما بدأ يظهر في روسيا منذ القرن الحادي عشر. لكن هذه الكتابات التي كانت في أكثرها غير موضوعية أفسدت صورة الإسلام والمسلمين في المخيال الروسي، وأثرت سلبا على مستقبل الاستشراق.وإن ظهر في القرن السادس عشر مفكرون روس نزهاء خففوا من هذه الصورة ، مثل أندري كوربكسي.

والملاحظ أن الأثر العربي في الروس كان في الغالب غير مباشر، أي بطريق شعوب القوقاز المسلمة، فاستعارت اللغة الروسية كلمات كثيرة من العربية، وترجم الكثير من الأدب العربي إلى الروسية عن طريق لغات أخرى كاليونانية. و يعتبر القرن التاسع عشر القرن الذي تجلى فيه بوضوح تأثير القرآن الكريم والآداب العربية في الأدب الروسي.

أهم الاساليب التي تعرف الروس عبرها على الحضارة الإسلامية هي التجارة والرحلات والترجمات

3- بداية الاستشراق الروسي أو مرحلة تراكم المعلومات: في البداية بين الباحث كيف تأخر ظهور الاستشراق الروسي رغم أن جزء من الشرق الإسلامي كان يعيش دائما بداخل الإمبراطورية الروسية و التي كانت لها أيضا حدود واسعة مع العالم الإسلامي.. إضافة إلى أن العربية كانت دائما حاضرة بين التتر، وكانت المخطوطات العربية متوافرة بالبلد..لكن هذه العوامل المساعدة لم تمنع تأخر روسيا عن أوربا بمراحل في مجال الدراسات العربية والإسلامية.

و يحلل بعض العلماء الروس هذه الظاهرة بضعف الاهتمام وقلة المختصين وتأخر الاستفادة من مناهج الغرب والأثر السيء للإرث البيزنطي على النخب القديمة فيما ولت الجديدة وجهها صوب أوربا...ويعتقد المؤلف أن السبب الرئيس لهذه الظاهرة هو التأخر العام لروسيا في جميع المجالات السياسية

والثقافية والاقتصادية والحضارية...لهذا لم يبدأ الاستشراق فعلا إلا في سياق النهضة الشاملة التي قادها القيصر بطرس الأول . ففي عهده بدأت أول المحاولات الروسية المنظمة لتدريس اللغات الشرقية، فظهرت معاهد علمية وبدأ إعداد الأطر المختصة في الشرق وجمع المخطوطات والمسكوكات و ترجمة بعض ما كتبه الأوربيون عن العالم الإسلامي. وقد سرع بروز الدولة العثمانية بوتيرة تطور هذا الاهتمام العلمي، فوقف الروس على عدد من المؤلفات الأوربية عن العثمانيين..إذ كان بطرس يود التعرف على عدوه الأول: الخلافة العثمانية .

لكن الاستشراق لم يتقدم كثيرا بعد موت بطرس سنة1725, ولم تستأنف الدولة جهودها في هذا الحقل إلا بعد حوالي نصف قرن، وذلك في عهد كاتيرينا الثانية، فأرسلت بعثات طلابية إلي أوربا وتوسع تعليم العربية و تم إدخال الحرف العربي في الطباعة التي كان من ثمارها الطبعة الرائعة للقرآن الكريم المعروفة بنسخة قرآن سان بيترسبورغ. كما ترجم القرآن إلى الروسية، وكان تأثيره عميقا في أمير الشعر الروسي بوشكين صاحب ديوان « قبسات من القرآن» حتى قال: إن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي أذهل مخيلتي. وترجمت في هذا العهد أيضا كتب أدبية أخرى كألف ليلة وليلة..وبهذا و غيره دخلت الثقافة العربية إلى مجال الثقافة والأدب الروسيين.

ورغم هذا كله - يؤكد الكاتب - فإن الدراسات الروسية الاستشراقية ظلت في معظمها سطحية، ولذلك فالقرن الثامن عشر هو بالأساس مرحلة التلقي وتراكم المعلومات بالاعتماد في الغالب على الكتابات الأوربية.

الفصل الثاني: الاستشراق الروسي الأكاديمي

1. تأسيس شعب الاستشراق في الجامعات الروسية: كان لصدور المرسوم المنظم للجامعات الروسية سنة 1804أثر هام في تطوير الاستشراق الروسي، ذلك لأنه بمقتضاه أحدثت شعب خاصة باللغات الشرقية، اشتهر منها بالخصوص أربع مؤسسات :

أ- جامعة قازان ، وكان الألماني فرين -المتوفى سنة 1851 - من بين أهم أساتذتها، بل اعتبره الباحث مؤسس الاستشراق الأكاديمي.

ب- جامعة موسكو التي بدأ بها تدريس العربية على يد بولديرييف (ت 1842) أول عالم روسي متخصص في الدراسات الاستعرابية.

ج- جامعة فيلنيوس البلطيقية، وقد تأثرت بالجو الاستشراقي العلمي في دولة بولونيا المجاورة.

د- جامعة سان بيترسبورغ، وهي من أهم المراكز الاستشراقية في العالم منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر إلى اليوم، خصوصا مع وجود «المتحف الآسيوي» بالمدينة نفسها. ويعود فضل تطور الاستشراق بهذه الجامعة إلى ثلاثة علماء، أولهم الألماني فرين الذي أشرف على جمع المخطوطات و تنظيمها و تكوين الأطر الروسية، واهتم بالبحث في المصادر العربية لتاريخ روسيا، كما أنجز فهرسا ضخما للمسكوكات الإسلامية الموجودة بالمتحف المذكور. و العالم الثاني هو سينكوفسكي الذي كان أول طالب توجهه الجامعة. وهي فيلنيوس - إلى الدراسة بالشرق العربي عوض أوربا ثم صار هذا تقليدا علميا ثابتا . وبعد عودته تولى رئاسة شعبة الدراسات العربية بجامعة سان بيترسبورغ، فتخرج عليه عدد هام من الطلبة والأطر الذين عملوا في ميدان الاستشراق.

أما الثالث: الشيخ محمد عياد الطنطاوي فهو عالم أزهري استدعته الجامعة سنة 1840 للعمل في رحابها، وكان تدريسه الطويل بها حدثا مهما طبع الاستشراق الروسي والفنلندي بأثر خاص. ويظهر لي أن هذا الشيخ يستحق أن يفرد بدراسات مستقلة أخرى، غير ما أنجز، فقد كان أعجوبة ، إذ استطاع تعلم الروسية

والفرنسية والفارسية والتترية وألف بها جميعا.و قد توفي بسان بيترسبورغ سنة 1861.

وأخيرا سجل الكاتب دور قسم تعليم اللغات الأجنبية بوزارة الخارجية في المساهمة في تطور الاستعراب الروسي، وكذا دور الصحفيين والمترجمين وبعض الدوريات الروسية التي اشتهرت بكتاباتها حول الشرق.

2-ترسيخ التقاليد العلمية في المدرسة الاستشراقية الروسية : إذا كانت المرحلة الأولى من الاستشراق الأكاديمي قد تميزت بتأسيس الشعب المتخصصة وتخريج الطلبة ، فإن المرحلة الثانية - وفق تقسيم الكاتب - هي مرحلة ترسيخ المنجزات و استكمال النواقص . وفي هذا الإطار يأتي تأسيس كلية اللغات الشرقية بجامعة سان بيترسبورغ سنة 1855 ، فهو حدث بالغ الأهمية ، وقد درس بهذه الكلية من وجوه الاستعراب : كاظم ميرزا بك، وكريكوريف، ونافروتسكي .ومن أشهر مستشرقي هذه الفترة بيريزين، جال في الشرق فعرفه عن قرب وأكثر من التأليف.
كما تأسس أيضا بجامعة موسكو معهد «لازارييف»، درس به الدمشقي جرجس مرقص، وخولموكوروف أحد أفضل مترجمي عصره. أما الدراسات الاستشراقية بقازان فقد تعثرت وضعفت بعد نصف قرن من العطاء العلمي ، خصوصا حين أحدثت سنة 1854 شعبة للتبشير تابعة لأكاديمية الرهبان القازانية، وكانت عداوتها الشديدة للإسلام عائقا لنمو المعرفة النزيهة بالشرق.

3- نضج المدرسة الاستعرابية الروسية ، أو مرحلة الرشد: وذلك في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، حيث لم يعد الاستشراق الروسي يكتفي باستيراد المعرفة، خاصة من أوربا ، بل أصبح ينتجها وعلى قدم المساواة مع المراكز الاستشراقية الكبرى . وقد اعتبر الباحث أن كيركس وروزين.ت 1908. هما مؤسسا هذا


بوشكين

الطور الناضج، فالأول اشتهر بنشره كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ، لكن دور الثاني أهم ، وذلك لتنوع اهتماماته العلمية وكثرة تآليفه ، ولأنه شغل منصبين مهمين : عميد كلية اللغات الشرقية ورئيس «الجمعية الشرقية» التي جمعت المستشرقين الروس، كما أصدر روزين المجلة الاستشراقية الشهيرة «زابيسكي». أي أن روزين -باختصار- نجح في نقل الاستشراق الروسي إلى أفق العالمية.

وقد اعتبر الباحث أن الاستشراق الروسي بلغ أوجه ونضجه مع ثلاثة علماء روس : كريمسكي وبارتولد وكراتشكوفسكي ، ولذلك فصل الحديث هنا عن الأولين بينما خصص الفصل اللاحق للثالث .

أما كريمسكي فهو أنموذج المستشرق الأديب والعالم النزيه ، أصله من أوكرانيا، تخرج من معهد لازارييف ثم درس به. وقد قضى سنتين بالشرق ملاحظا ومتابعا للحياة الثقافية العربية ، ورأى -خلاف كثير من زملائه -أن سبب تأخر العالم العربي لا يكمن في الدين بل في غياب اقتصاد صناعي . كما انتقد عمل البعثات الدينية والثقافية الأجنبية في الشرق العربي . لكن هذا

الاستقلال في انتقل الرأي جلب عليه متاعب جمة، فمات بسجون ستالين سنة 1941 . وقد ترك كريمسكي عشرات الكتب ، خاصة التعليمي منها . ومن أهم مؤلفاته : تاريخ «الأدب العربي الجديد» ، كتاب ضخم، و «الديانة الإسلامية ومستقبلها» . وله أيضا إبداع أدبي بالأوكرانية استفاد فيه من ثقافته العربية .

- بارتولد (ت 1930): تلميذ روزين وأنموذج المستشرق المؤرخ ، وقد نال شهرة عالمية باعتباره اختصاصيا كبيرا في حقل تاريخ الحضارة الإسلامية عموما ، وجغرافية وتاريخ بلدان آسيا الوسطى خصوصا . وتميز أيضا بغزارة إنتاجه ، إذ له أزيد من أربعمائة عمل ما بين كتاب ومقال . وبعض مؤلفاته رد علمي صريح على عدد من الأفكار العنصرية والاستعمارية التي كانت سائدة آنذاك بين المستشرقين، وهو كذلك شديد النقد للمركزية الأوربية ولتصوراتها الزائغة عن الإسلام والإنسان الشرقي . واهتمامات بارتولد بالحضارة شديدة التنوع : اللغة ، والعمران، والحركة العلمية والفكرية، وقضية أسباب تدهور المسلمين رغم جهودهم للنهوض في القرون الأخيرة ودرس أيضا قضايا مثل الدور التوحيدي للإسلام ، والوضع الإيجابي للمسيحيين في ظله.

من كتب هذا المستشرق الفذ : العالم الإسلامي. وتركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي .لكن أهم كتبه : تاريخ الاستشراق في أوربا وآسيا ، وهو ليس بحثا عاديا في تاريخ الاستشراق ، كما قد يوهم ذلك عنوانه. لقد سعى بار تولد هنا إلى دراسة موقع الشرق في التاريخ الروسي ، وكيف أنه كان لنظرة الروس إلى الشرق تطور خاص يختلف عن مثيله بأوربا . ولذلك انتهى ببحثه إلى أن الشرق لم يكن ظاهرة عابرة في تاريخ روسيا - كما يعتقد ذلك جل المؤرخين -بل هو جزء لا يتجزأ منه .

الفصل الثالث : كراتشوفسكي، شيخ الاستعراب الروسي

خلال النصف الأول من القرن العشرين، خصص الكاتب فصلا كاملا لأحد أكبر المستشرقين في تاريخ الاستعراب الروسي منذ ظهوره إلى اليوم. فقد ولد كراتشكوفسكي سنة 1883 بمدينة فيلنيوس ، وقضى بعض طفولته بطشقند. تخرج من كلية اللغات الشرقية بسان بيترسبورغ ثم عمل بها مدرسا بعد عودته من رحلته الشرقية التي دامت سنتين تعرف أثناءها على بعض الأدباء والكتاب العرب وعلى المكتبات والحياة العامة. وقد تعاطف كراتشكوفسكي مع العالم الإسلامي ما ساعده على تفهمه ، لذلك كان مثالا للنزاهة العلمية.

أما نتاجه العلمي فهائل ، بل لا يكاد يوجد فرع من علوم العربية وأدبها لم ينل شيئا من اهتمامه وتأليفه ، ولذلك كتب نحو ستمائة بحث ما بين المقال والكتاب.والذي ظهر لي من خلال قراءتي لهذا الفصل أن اللون الأدبي أغلب على اهتمامات كراتشكوفسكي وأنه يمكن تصنيف كتاباته في هذا المجال ضمن حقلين:

الحقل الأول : الأدب العربي القديم ، وقد كتب في هذا كثيرا ، فبعضه عبارة عن دراسات عامة تتعلق بالأدب والشعر العربيين منذ الجاهلية إلى عصره وبعضها الآخر يخص أفرادا بعينهم مثل أبي العتاهية والبحتري وذي الرمة وقدامه بن جعفر إضافة لدراسات مختلفة لبعض المخطوطات ، أو لبعض القضايا كالأدب العربي بشمال القوقاز. وقد اختار المؤلف نماذج من دراسات كراتشكوفسكي في هذا المجال وخصها ببعض التفصيل ، ومنها :

1- دراسته لكتاب «البديع» لعبد الله بن المعتز ، وأخرى للمتنبي وبمدى استفادة المعري منه . وهنا دعا كراتشكوفسكي إلى دراسة المتنبي من خلال النص العربي المدروس ، بما في ذلك النص النقدي ، لا من خلال الذوق الأوربي كما فعل الفرنسي بلاشير. وتوقف المؤلف أيضا عند أطروحة هذا المستشرق الكبير عن أبي الفرج الوأواً الدمشقي ، وهو عمل ضخم فيه تحقيق

للنص العربي للديوان مع دراسته وترجمته إلى الروسية.

2-دراسات أندلسية : لم يهتم الاستشراق الروسي بالأندلس ، وما عرفه عن حضارتها وآدابها كان بواسطة الإنتاج الأوربي ، وكراتشكوفسكي هو الذي نبه على أهمية هذا الحقل من خلال دراساته ومقالاته عن ابن زيدون وابن خفاجة والشعرية الأندلسية والاستعراب الإسباني والحضارة الإسلامية بالأندلس وبعض المخطوطات الأندلسية الخو كانت هذه الأعمال بمثابة الأساس الذي انطلقت منه الدراسات الروسية اللاحقة في هذا المجال .

3-الأدب الجغرافي العربي : درس كراتشكوفسكي تاريخ الجغرافيا العربية كيف بدأت وتطورت ، وما هي مواضيعها وأعلامها وكتبها في تسلسل جيد يصل إلى القرن الثامن عشر . وهذا المؤلف الضخم هو في واقع الأمر موسوعة شاملة وفريدة من نوعها ، وتعتبر - فيما ذكره الكاتب - أفضل ما كتب في هذا الموضوع ، ولحسن الحظ أن الكتاب مترجم إلى العربية .

الحقل الثاني : الأدب العربي الحديث. وهنا أوضح المؤلف أن من أهم ميزات كراتشكوفسكي عن جمهور المستشرقين انتباهه إلى الأدب العربي الحديث واهتمامه الشديد بدراسته ، بعدما أدرك التحولات العميقة التي كانت تجري داخل العالم العربي على جميع المستويات حتى نجح في جعل هذا الحقل تخصصا مستقلا . ودراسات كراتشكوفسكي هنا تتعلق بناحيتين : الأولى هي تأريخ هذا الأدب منذ نشأته التي كان يراها في بداية القرن التاسع عشر. والثانية هي نقد هذا الأدب. وهذه بعض أعماله . بين المقال والكتاب . التي تبين طبيعة بحوثه في هذا الحقل :نشأة الأدب العربي الحديث وتطوره.

درس الآداب العربية الحديثة: مناهجه ومقاصده في الحاضر الاتجاهات الحالية في الأدب العربي في مصر. الأدب العربي في أمريكا . طه حسين ومدونته «الأيام» محمود تيمور ومؤلفاته الجديدة. الترجمة العربية للإلياذة . كتاب ميخائيل نعيمة حول جبران . رزق الله حسون : مترجم حكايات كريلوف إلى العربية كوركي والأدب العربي ، تشيخوف والأدب العربي. سليمان البستاني . مي اليازجي . زيدان. ولكراتشكوفسكي أيضا نظرات نقدية خاصة في الأدب العربي الحديث ومفهومه ومعناه ، وأنه كان جيدا إلى أواخر الثلاثينيات، لكن لم يواكبه النقد ، ولذلك قدم خطة لمنهج دراسة هذا الأدب وكيفية تطويره .

لم يكن الشرق ظاهرة عابرة في تاريخ روسيا، بل هو جزء لا يتجزأ منه

ويبدو كراتشكوفسكي أصيلا ورائدا في تتبعه لبوادر نشوء الأدب الحديث : كيف ظهر ، وما مواطنه الأولى ، وكيف نما وتطور ، وما هي أهم مراكزه فهذا العالم مؤرخ جيد وملاحظ متتبع للأدب العربي الحديث لمدة قرن ونصف ، وحاول أيضا تأريخ حركة النقد العربية .

وكان كراتشكوفسكي ذواقة للشعر قديمه وحديثه ، واهتم خصوصا بتطوره وازدهاره في مصر والعراق، فألف عن محمد مهدي الجواهري، وأعجب بمعروف صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وكان من رأيه أن الشعر العربي يحتاج لاستعمال أشكال جديدة.
وأثار الكاتب أيضا مسألة وعي كراتشكوفسكي بأهمية الصحافة ودورها في ازدهار الفنون الأدبية العربية ، وكذلك اهتمامه بموضوع المرأة حيث ترجم عام 1912 كتاب قاسم أمين «المرأة الجديدة» إلى الروسية، وكتب

للترجمة مقدمة تناول فيها موضوع الحركة النسوية العربية .

الفصل الرابع : الدراسات الاستشراقية الروسية حول الدين الإسلامي

لاحظ السيد العطاوي أن الأبحاث الأدبية واللغوية كانت تتقيد عموما بإطار أكاديمي صرف ، عكس الدراسات المتعلقة بالإسلام والتي كان كثير منها لا يتسم بالموضوعية . ولذلك صنف الباحث المستشرقين الروس إلى ثلاث فئات :

1. المستشرقون العلماء ، والنزاهة على هؤلاء أغلب .
2 . المستشرقون الموظفون ، وهم المرتبطون بالإدارة الاستعمارية في المناطق الإسلامية
من الإمبراطورية أو الاتحاد.
3 . المستشرقون المبشرون، وهم خدمة الكنيسة .

وحدد الباحث أهم محاور المواضيع التي شغلت المستشرقين الروس:
1 . التاريخ الإسلامي منذ عهد النبوة .
2 . القرآن الكريم.
3 . تاريخ الدراسات الإسلامية بروسيا.
4 . الفرق الإسلامية والبابية والبهائية .
5 . الإسلام والشيوعية.

إن جزء من الشرق المسلم كان يعيش دائما بداخل الإمبراطورية ، سواء القيصرية أو السوفياتية ، ولذلك توافرت عناصر اللغة والدين والمخطوطات بالحرف العربي في العالم الروسي ، فاتجه الاستشراق أول ما اتجه إلى دراسة هذا الجزء المسلم (عاش المسلمون بالاتحاد السوفياتي إما في جمهوريات، هي حاليا «مستقلة» ، كأوزبكستان وإما بولايات داخل روسيا ، كتترستان وباشكيريا). ثم تناول المؤلف ببعض التفاصيل موضوع الاستشراق الدارس للإسلام من خلال العناصر الآتية.

1- الدراسات حول الإسلام قبل الثورة السوفيتية «ومجموعة اللامنتمين» : من أصحاب هذه الدراسات الذين ذكرهم الكاتب : بيريزين المتوفى سنة 1896 فهو من الممثلين الأوائل للمدرسة الاستشراقية الأكاديمية ، لكنه تأثر بالتربية الدينية التي تلقاها عند الرهبان بقا زان . أما كريكورييف -ت 1886- فيمثل فئة المستشرقين المخضرمين حيث عمل في الحقلين الجامعي والإداري ، أي إدارة المناطق الإسلامية بالإمبراطورية في حين اهتم دوبرولوبوف الفيلسوف بشخصية النبي عليه الصلاة والسلام.

لم يهتم الاستشراق الروسي بالأندلس وما عرفه عنها كان بواسطة الانتاج الاوروبي

ويقصد باللامنتمين جماعة العلماء الدين لا يستندون في أبحاثهم إلى المنهج الماركسي ، ذلك أن الاستشراق السوفياتي كان يعمل وفق المنظور الليني ومصطلحاته، الشيء الذي لم يرتضه اللامنتمون، وأبرزهم:
1. كريمسكي .
2 . بارتولد صاحب الكتب الآتية : الإسلام . حضارة الإسلام. الخليفة والسلطان . الفكرة الثيوقراطية والسلطة الدنيوية في الدولة الإسلامية .
3 . كراتشكونسكي الذي لم يقتصر في تأليفه على مجال الأدب فقط ، فترجم كتاب كولدزيهر : الديانة الإسلامية ، وكتب «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي» تعرض فيه إلى مجمل العلاقات الروسية العربية القديمة .
4 . شميدت 1939, من كتبه «من تاريخ العلاقات السنية الشيعية» 5 . جوكوفسكي 1918, من تأليفه : التصوف الفارسي .

2. **القرآن الكريم :** ترجمة معانيه إلى اللغة الروسية

ودراسات حوله : شغل موضوع ترجمة معاني القرآن حيزا هاما من اهتمامات المستشرقين الروس ، فبدءوا بالترجمة عن طريق لغة وسيطة كالفرنسية، ثم أنجز الجنرال بوكوسلافسكي ت 1893 ترجمة قيمة بالاعتماد مباشرة على الأصل العربي ، وكذلك فعل سابلوكوف وإن كان بترجمته بعض الأخطاء . لكن أجود ترجمة للقرآن الكريم إلى حدود الثمانينيات هي -كما ذكر المؤلف - من إنجاز كراتشكوفسكي ، وبعد هذا التاريخ بدأ مسلمو الاتحاد السوفياتي السابق يصدرون ترجمات أخرى.

3-البابية والبهائية وسائر الطوائف الدينية : بين الباحث أن من أهم أسباب الاهتمام الروسي بهاتين الطائفتين. خصوصا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. حرص الدولة على فهم الظاهرتين واستغلالهما. واهتم المستشرقون أيضا بطوائف أخرى كالإسماعيلية والنقشبندية .

4-السياسة والإسلام والتشريع الإسلامي : أثار اهتمام المستشرقين الروس -قبل البلشفية وبعدها - ما اعتبروه الطابع السياسي للإسلام ، فكتب تشيريفانسكي في هذا الإطار «العالم الإسلامي ويقظته» سنة 1905 . لكن من أهم هذا النوع من الأعمال في العهد السوفياتي : الإسلام والشرق المعاصر، لسميرنوف . الإمبريالية والدين في المستعمرات ، لزويفا . ومنذ الثلاثينيات بدأ الاستشراق يدرس الإسلام خارج حدود الاتحاد السوفياتي ، فصدر مثلا «المسلمون في الهند» لكاموف كما حظي الفقه الإسلامي - وخاصة العقاري منه -باهتمام خاص. وألف في موضوع نشأة الإسلام جماعة ، منهم ريسنير وتولستوف وبيليايف ونحوهم ممن تناقضت نظرياتهم واضطربت في تفسير لغز ظهور الإسلام ، وإن كان أكثرها يعتمد النظرية المادية والطبقية.
ومن جهة أخرى لاحظ الأستاذ العطاوي أنه كان للحملة المغرضة التي استهدفت الإسلام في تلك الفترة آثار سيئة على مستقبل الدراسات الإسلامية في ربوع روسيا كلها ، فصدرت مؤلفات عديدة محدودة القيمة العلمية إذ جعلت من محاربة الإسلام هدفها الأسمى.

5-كتاب «أبحاث في دراسة الإسلام» لسميرنوف: أنموذج للكتابات السوفيتية حول دراسة الدين الإسلامي : اعتبر المؤلف أن هذا الكتاب هو أهم ما صدر في الاتحاد السوفياتي في موضوع تأريخ الدراسات الإسلامية بروسيا، رغم ما شابهه من تحامل على الدين ، إذ كان سميرنوف ينطلق من «العلم التاريخي السوفيتي» المبني على الماركسية اللينينية ، ويوصي بدراسة كيفية القضاء نهائيا على بقايا الأديان بالاتحاد ، ولهذا دعا صراحة إلى توظيف الاستشراق لخدمة مصالح الدولة.

ولعل أهم ما غاب عن أذهان المستشرقين الموظفين هو أن الإسلام - كما قال الأستاذ العطاوي -كان يمثل بالنسبة لشعوب الاتحاد المسلمة المضطهدة والمحرومة من حقوقها كلا من الدين والوطن والثقافة والهوية . وأشياء أخرى ، حتى غدا مسوغها الوحيد في الوجود والاستمرار لذلك شكل الدين رمزها الأعلى وآخر آمالها في الحفاظ على كينونتها.

الفصل الخامس : المكتبات الاستشراقية والمخطوطات العربية في روسيا

وقد قسمها الباحث إلى ثلاثة أصناف :
1. المكتبات العلمية التابعة لمعاهد الاستشراق .
2. المكتبات العامة في كبريات المدن الروسية .
3. المكتبات الجامعية .
وفي بعض الوزارات خزائن هامة من الوثائق والمستندات الدبلوماسية ، وأهمها يوجد بموسكو :«مديرية التاريخ الدبلوماسي» التابعة لوزارة الخارجية، و «دار الأرشيف والوثائق القديمة للدولة الروسية ».

ثم تحدث المؤلف عن بعض المكتبات بتفصيل :

1. الجناح الشرقي للمكتبة العلمية لجامعة سان بيترسبورغ، وفيها حوالي 1040 مخطوطة .

2. مكتبة صالطيكوف شيدرين العامة بسان بيترسبورغ، فيها 800 سفر ، بعضها مجاميع .

3. مكتبة جامعة موسكو : إحدى أقدم المكتبات الروسية، والغالب عليها الكتاب المطبوع .

4. مكتبة معهد الاستشراق بموسكو.

5. مكتبة جامعة قازان، وقد كان بها مطبعة أصدرت خلال القرن التاسع عشر آلاف العناوين بكثير من اللغات الأوربية والشرقية ، وفيها اليوم حوالي 3200 مخطوطا ، كما تمتاز باحتوائها على مؤلفات كثيرة لعلماء تتريين ما زالوا حتى الآن مجهولين في العالم العربي .

وقد فصل الباحث الكلام أكثر عن واحدة من أغنى المكتبات الاستشراقية في العالم، وهي مكتبة ملحقة معهد الاستشراق بسان بيترسبورغ ، أو المتحف الآسيوي السابق الذي كان أبرز مؤسسة علمية روسية تكلفت بجمع وتصنيف المخطوطات ودراستها ، وكان دورها هاما في تاريخ الاستشراق الروسي ، وتمت معظم مقتنيات المتحف من خلال السفارات الروسية . ومحتويات المكتبة نوعان :

أ- قسم المطبوعات : كان يضم عام 1963 أزيد من عشرة آلاف كتاب عربي ، بعضها قديم ونادر ، كنزهة المشتاق المطبوع بروما سنة 1592 . وتضم المكتبة منشورات جل المطابع العالمية التي كانت تصدر كتبا بالحرف العربي .

ب- قسم المخطوطات: به حوالي خمسة آلاف سفر ، كثير منها يحتوي على عناوين متعددة. وأهم هذه المخطوطات من حيث قيمتها العلمية هي مجموعة زرو سوس. وللقسم عدد من الفهارس الوصفية .

وفي الأخير وصف المؤلف عددا هاما من مخطوطات المكتبة النادرة والفريدة في مجالات متنوعة : التفسير والحديث والفقه والتصوف والوعظ والنحو والبلاغة والعروض والأدب والتاريخ والتراجم والجغرافيا والفلك والكيمياء والطب والفنون الحربية الخ. وقد لاحظ الكاتب أن نفائس المكتبات الروسية معروفة عند المختصين في عدد من دول أوربا وأمريكا بفضل الفهارس والدراسات التي صدرت حولها، بينما تظل شبه مجهولة في الأقطار العربية .

هذه محتويات الأطروحة باختصار ، وقد حوت خاتمتها أهم النتائج التي توصل رأيي في الكتاب : عندي أن البحث في هذا المجال الذي اختاره الكاتب اختيار جيد وموفق ، فروسيا عالم واسع تداخل تاريخه -كما جغرافيته- مع عالمنا العربي والإسلامي تداخلا شديدا، وأحيانا عنيفا . ولهذا لم يهتم الاستشراق الروسي بالدراسات العربية فقط ، بل كذلك بالتركية والفارسية والتترية وهي أهم القوميات المسلمة التي تعامل معها الروس في تاريخهم الطويل .

لكن من الواضح - من خلال دراسة الأستاذ العطاوي - أن في الاستشراق الروسي الآفات نفسها التي أثرت سلبا على مسيرة الاستشراق الأوربي ، وذلك مثل :

1. التحيز .

2. معاداة الإسلام.

3. الارتباط بالإمبريالية ، سواء كانت قيصرية أم شيوعية فجل المستشرقين -قبل الثورة وبعدها - دافعوا عن السياسة التوسعية القيصرية .

ورغم هذا فإن عددا من المستشرقين الروس ظلوا أوفياء لتقاليد العلم النزيهة ، بل إن ما يسترعي الانتباه أن المتهجمين على الإسلام وشعوبه هم في الغالب من مستشرقي الدرجة الثانية ، بينما تميز المستشرقون الكبار بالنزاهة وبنوع من التعاطف مع الحضارة العربية الإسلامية .

ونحن في الحقل الثقافي العربي بحاجة إلى التعرف أكثر

على هذه الطبقة الممتازة من المستشرقين الروس ، والذي لفت انتباهي بالخصوص هو بار تولد ، فهو مؤرخ عميق الغوص سديد النظر ، وشكلت مؤلفاته نقطة تحول في مسيرة الاستشراق العالمي، خاصة التاريخي منه ، وذلك باعتماده على الوثائق والمراجع الأصلية ، ومقارنة الحضارة موضوع الدرس بغيرها . ما جعل كتبه مفيدة إلى اليوم ، وإن كان القارئ العربي لا يعرف أكثرها ،فليتها تترجم إلى العربية.

ومن ميزات هذا الكتاب الذي أعرض له كونه يسلط الضوء على أحداث ويعلل وقائع عادة لا يعرفها كثير من الباحثين العرب أو يهملونها . من ذلك مقارنته بين سقوط قازان وغر ناطة،قال :«سقوط قازان في أقصى الشمال الشرقي من أوربا لا يقل أهمية . على الصعيدين السياسي والديني - عن سقوط غر ناطة في أقصى الجنوب الغربي من أوربا نفسها قبل نصف قرن من الزمان»(3). ويسجل الكاتب أيضا غياب الوعي بأهمية أول وأكبر مطبعة عربية بقازان تأسست سنة 1802 ، يقول بعد حديث عنها : «غير أن الاختصاصيين العرب في تاريخ الطباعة العربية لا يعيرون - للأسف الشديد- أي اهتمام يذكر لهذه المرحلة الروسية الرائدة» (4).
ومن جهة أخرى أرى أنه يجب أن يستفيد البحث التاريخي عندنا من الأرشيف الروسي الواسع الذي أشار إليه السيد العطاوي ، خصوصا لفهم كثير من أحداث القرنين الأخيرين . وقد استفيد إلى حد ما من الوثائق الفرنسية والإنجليزية وحتى التركية. أما الروسية فلا.

أما ملاحظتي الرئيسة على الكاتب فهي تخصيصه حيزا مهما من الكتاب لكراتشكوفسكي (حوالي مائة صفحة ، أي ربع الكتاب). حقا إن أثره هام في الاستشراق الروسي ، لكن كان يمكن تخصيص كتاب مستقل عنه ، أو اختصار الكلام عنه هنا وهذا -أو ذاك -كان سيسمح للمؤلف بمتابعة الكتابة عن الاستشراق الروسي إلى اليوم ، فحدود دراسته تنتهي مع كراتشكوفسكي الذي توفي سنة 1951. وليت الكاتب يعرفنا-في المستقبل القريب- على حركة الاستشراق في الخمسين سنة الأخيرة : ما معالمه وأعلامه و أعماله ، وهل غير سقوط الاتحاد السوفياتي من اتجاهاته ؟ (5) ولو أرفق المؤلف بكتابه خريطة لروسيا لكان أمرا حسنا.

إن هذه الدراسة هامة ، ويبدو لي أنها الوحيدة في موضوعها بالمكتبة العربية ، فمن على هذا المنبر أخاطب المؤلف وأشد على يده وأشجعه على مواصلة العمل في هذا الحقل الثقافي الفريد والهام، وأطالبه بإخراج مزيد من البحوث والدراسات عن العالم الروسي القريب منا والبعيد في آن ●

هوامش

1- صدر عن المركز الثقافي العربي ببيروت والدار البيضاء . الطبعة الأولى سنة 2002, قياس17× 24.

2- راجع العدد الخاص عن الصين في مجلة الديبلوماسية الفرنسية: la diplomatie,n9, juin-juillet 2004

وانظر أيضا افتتاحية راموني في: le monde diplomatique , juillet 2004

3 - الاستشراق الروسي ،ص 36.

4 - الاستشراق الروسي ، ص 39.

5 - للمؤلف مقالة بالفرنسية عن الاستعراب الروسي في الفترة من 1917 إلى 1972,و ذلك بمجلة: Traces.. 4,1980